

# الرمز والتأويل في النصّ القرآنيّ

## سورة يوسف أنموذجاً

أ.د. دلال عباس

الجامعة اللبنانيّة - المعهد العالي للدكتوراه

### تمهيد

القصة القرآنيّة، إمّا تاريخيّة لأحداثها وشخصياتها وجوداً واقعيّ في التاريخ، رُويت للعبرة، أو واقعيّة تقدّم أنموذجاً من أحوال البشر، سواءً حدثت في الواقع أو أنّها ممكنة الحدوث؛ فمن الأحداث الواقعيّة التي أشار إليها القرآن الكريم ما حدث في عصر النبيّ: كقصة معركة بدرٍ في سورة الأنفال ومعركتيّ أُحد وحمراء الأسد في سورة آل عمران، ومعركة الخندق في سورة الأحزاب وصلح الحديبيّة في سورة الفتح، وقصة الإفك في سورة النور؛ وهنالك بعضُ القصص القرآنيّة لها طابعٌ تمثيليّ أو رمزيّ تُضربُ مثلاً، ويمكن أن تحدث في أيّ زمان ومكان كقصة صاحب الجنّتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم، فالبنية التفصيليّة لكلّ من هاتين القصّتين ومضامينها وحوادثها تشير إلى أنّها قصة واقعيّة لا مانع من حدوثها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ ذكرها القرآن مثلاً وعبره.

على الرغم من أنّ القصة القرآنيّة الواحدة ذات الأصل الواقعيّ الواحد، باستثناء سورة يوسف، ترد أحياناً بأشكال مختلفة، فإنّ ذلك لا يعني تعدّد الوقائع، وإنّما يأتي تعبيراً عن الانعكاسات الذهنيّة لشخصيات القصة، وتختلف الألفاظ أحياناً باختلاف الأحوال والظروف والحالة الذهنيّة كما في قصة موسى أنموذجاً، كذلك فإنّ القصة القرآنيّة من حيث توزّع عناصرها، من نوع القصة القصيرة، ولم تأت روايةً مكتملة إلا في قصة يوسف.

## سورة يوسف:

تبدأ السورة بمقدمة تمهيدية تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن عربيًّا لمواجهة المشركين بعربيّة القرآن الذي كانوا يدعون أنّ أعجميًّا يعلمه لرسول الله (ص) وتقرّر أنّه وحيٌّ إلى النبيّ (ص) أحد الأميين في قومه، الذين لا يتوجّهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها القصص الكامل الدقيق.

سورة يوسف من السور المكيّة الطوال، نزلت بين عام الحزن على موت أبي طالب وخديجة سنديّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وبيعتي العقبة الأولى ثمّ الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلاميّة فرجًا ومخرجًا بالمجرة إلى المدينة، والسورة كلّها لحمة واحدة عليها طابع هذه المرحلة الحرجة الموحّشة بصفة خاصّة. تتألّف من 111 آية، يؤلّف متّ الحكاية معظمها: تبدأ بمقدمة تمهيدية، وتنتهي بخاتمة تحفيزية للتدبّر في حكمة هذه القصّة التي تبدأ بيوسف وهو يخبر أباه يعقوب عن رؤياه، إلى المواقف والمحن الصعبة التي مرّ بها في أثناء حياته: ابتداءً بمؤامرة إخوته عليه حسدًا وبعيًّا، إلى أسرته الذي تعرّض فيه للرقّ أو لما يشبهه، إلى موقف الإغراء الذي يختلط بالتهديد، وتعرّضه بعد ذلك للسجن مدّة طويلة... والذي انتهى إلى أن يتسلّم مركز القوّة الكبيرة في إدارة شؤون البلاد، ممّا جعله يحتوي مشاعر إخوته ضده... ثمّ يجمع إليه أهله جميعًا...

القصّة تتألّف من حلقات والحلقة تتألّف من مشاهد:

### الفصل الأوّل (ستّة مشاهد)

**المشهد الأوّل:** المكان هو حيث يجلس يعقوب مع ابنه الذي يقصّ عليه رؤياه "إذ قال يوسف لأبيه... (يوسف، الآية 1) أدرك يعقوب بحسّه وبصيرته أنّ وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام، لم يُفصح هو عنه، ولم يُفصح عنه سياق القصّة كذلك، ولا تظهر بوادره إلّا بعد حلقتين منها، أمّا اكتماله فلا يظهر إلّا في نهاية القصّة...

**المشهد الثاني:** مشهد أخوة يوسف يتآمرون ويدبّرون له ما يدبّرون حقداً عليه وحسدًا له، لإيثار أبيهم له: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً"... في هذا المشهد تبريدٌ لقلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم... فالأخوة يتآمرون على أخيهم فكيف به هو الذي يواجه التآمر من مجتمع بأسره؟!

**المشهد الثالث:** الأخوة يحاورون يعقوب.

والنص يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتوسلوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.

يبدأ سؤال فيه عتبٌ وفيه استنكار خفي؛ (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفائه من الدغل المريب... وحين علل ما يتهمونه به بقلّة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب: أعطاهم الحجة والذريعة التي كانوا يبحثون عنها، والتي كانت دليلاً على كذبهم كما سيّضح لاحقاً.

**المشهد الرابع:** تنفيذ المؤامرة النكراء:

في هذه اللحظة البائسة التي لا منفذ فيها ولا مُنقذ ولا مغيث، يُلقى الله في روع الغلام أنّه ناجٍ وأنّه سيعيش حتى يواجه أخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون أنّه هو.

**المشهد الخامس:** الأخوة يواجهون الوالد المفجوع:

يلقّون له قصةً ألهاهم الحقد الغائر عن سبكها... تسرعوا وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذب لطحوه به في غير إتقان...

**المشهد السادس:** المحنة الأولى في حياة يوسف:

يوسف الذي رُمي في البئر تلتقطه قافلةٌ سيّارة وتبيعه بثمانٍ بخس... ويحذف السياق التفاصيل: غير المهمة بالنسبة إلى مدار القصة.

## الفصل الثاني (أربعة مشاهد)

**المشهد الأول:** يوسف يُباع في سوق الرقيق، ولا يكشف السياق عمّن اشتراه، لكننا بعد شوط نعلم أنه عزيز مصر، ونعلم أنّ يوسف قد وصل إلى مكان آمن "أكرمي مثواه" مبالغاً في الإكرام.

يكشف الرجل لامرأته عمّا يتوسّمه في الغلام من خير؛ وهنا يقف السياق لينبّه إلى أنّ هذا التدبير من الله، وبه ويمثله قُدْر ليوسف التمكين في الأرض "لكنّ أكثر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"، لا يعلمون أنّ أمر الله هو الذي يكون وهذا الكلام موجه إلى قوم الرسول، أمّهم لن يُفلحوا في التصدّي لدعوة النبي لأنّ أمر الله غالبٌ ومسيطر، "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا" وكان ذلك جزاءً لإحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك و"كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ".

**المشهد الثاني:** تجيئه المحنة الثانية في حياته، وهي أشدّ وأعمق من المحنة الأولى: نشهد ذلك المشهد العاصف المثير الخطير كما يرسمه التعبير... وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة... كان ردّه: أنّه لن يخون من أكرمه وأحسن إليه "معاد الله"، ثمّ ذكرها أنّه ينتمي إلى دينٍ مختلف، ونجا من مغريات هذه البيئة وتأثيراتها. لكنّ المرأة تتهمه وتلوّح بعقاب سيدها له... وهنا يذكر السياق أنّ أحد أهلها هو الذي حسم بشهادته الجدل وتبيّن له أنّها هي التي راودت فتاها عن نفسه.

**المشهد الثالث:** نعرف للمرّة الأولى أنّ المرأة هي امرأة العزيز: يُعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة، وانتشار الخبر...

**المشهد الرابع:** بطله هذا المشهد امرأة العزيز التي تواجه نساء طبقتها بمكرٍ أكبر من مكرهنّ وكيدٍ أشدّ من كيدهنّ... وتعلن "وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ". أمّا هو فيستنجد بالله ليصرف عنه كيدهنّ/ فيستجيب له "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ". واجتاز يوسف محنته الثانية.

## الفصل الثالث (أربعة مشاهد)

الحنّة في هذه الحلقة الثالثة من محن الشدّة في حياة يوسف، وفي قلب هذه الحنّة تتجلّى نعمة الله على يوسف، بما وهبه من علم لديّ بتعبير الرؤيا؛ ثمّ تتجلّى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة الملك، وظهور مواهبه التي تؤهّله لما هو مكنونٌ له في عالم الغيب من مكانةٍ مرموقةٍ وثقةٍ مطلقةٍ وسلطانٍ عظيمٍ.

**المشهد الأوّل:** بدا لهم أن يسجنوه إلى حين... ودخل معه السجنَ فتيان... في السجن يكسب يوسف ثقة المساجين ويعلن أنّه ليس على ملّة هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر (القوم الذين رُبي فيهم)، وإنّهُ يتبع ملّة آبائه: أي ملّة التوحيد:

"أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟" و"مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا" ... بعد تفسير رؤيا الفتية، يطلب إلى الناجي منهما أن يذكره عند سيّده، ولكنّ هذا الأخير ينسى.

**المشهد الثاني:** الملك في مجلسه يعلن عن رؤياه، فيتذكّر ساقيه أمرَ يوسف ويقول: "أَنَا أُنبئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي".

**المشهد الثالث:** يوسف في السجن والساقى يستفتيه، ويلقّبه بالصدّيق، وينقل رؤيا الملك بدقّة، ولم يكن تأويل يوسف تأويلاً مباشراً مجرداً، إنّما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه، فقد تعامل يوسف مع أزمة محدّدة تتلخّص في عدّة بنود:

1- تزرعون دأباً.

2- تحصدون ثمّ تتركون حبه في سنبله تخزيناً.

3- تأكلون قليلاً منه.

4- توّرعونه على السنوات العجاف إلاّ بذور الزرع.

ستنتهي المشكلة بعودة الأمطار والرخاء، وهنا نلاحظ أنّ هذا الرخاء لا يقابله رمزٌ من رؤيا الملك، إذاً هو من العلم اللدنيّ الذي علّمه الله يوسفَ.

**المشهد الرابع:** يرفع الستار على مجلس الملك... ويكون قوله "اثْثوني بِهِ" نتيجة لما حذفه السياق: أي ما نقله الساقى من تأويل الرؤيا...

يوسفُ لا يستعجل الخروج من السجن قبل أن يتمّ التحقيق بقضيّته وإثبات براءته (وفي كلّ الأحوال هو واثقٌ منها)...

الملك يستجوب النسوة... وتأتي الشهادة كاملةً ببراءته وصدقه "الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ".

لقد فصلت بين الحقّ والباطل، ما يشي أنّ عقيدة يوسف أخذت طريقها إلى قلبها فأمن. يشي السياق بحافز آخر، هو حرصها أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسديّة، أن يحترمها تقديرًا لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقّه عند غيبته.

#### الفصل الرابع (ثمانية مشاهد)

بعد انتهاء محنة السجن ومحنة الاتهام لم يتلهّف يوسف على مغادرة السجن الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقاءه. إنّها الطمأنينة التي تسكبها التربية الرئائيّة في قلوب الصفوة المختارة، بالابتلاء والمعاناة والرؤية والمشاهدة والمعرفة والتذوّق... ثمّ الثقة والسكينة.

هذه الظاهرة الجديدة في شخصيّة يوسف هي الظاهرة التي يحتفل بها سياق القصة وسياق السورة من الناحية الحركيّة التربويّة للمنهج القرآنيّ.

**المشهد الأوّل:** ثبت للملك أنّ يوسف بريء فطلب أن يستخلصه لنفسه، يوسف من ناحيته ذكر للملك من صفاته ما يؤهله لإنجاز هذه المهمة التي يرى أنّه أقدر عليها: "إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ".

ثم يحذف السياق ردّ الملك، ويدع القارئ يفهم أنّه في المكان الذي طلبه.

**المشهد الثاني:** دارت عجلة الزمن، وطوى السياق دوراتها، فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زرع الناس، وكيف نظّم يوسف ودبّر وادّخر، وكذلك لم يذكر السياق الملك ولا أحدًا من رجاله بعد ذلك في السورة كلّها، كأنّ الأمر كلّه قد صار ليوسف.

أمّا فعل الجذب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة وندرك كيف صارت مصر مخزن الطعام في المنطقة.

وفي الوقت نفسه تمضي قصّة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقّق هدفًا دينيًا في السياق.

لم يكشف لهم يوسف عن نفسه، ولكننا ندرك من السياق أنّه أنزلهم منزلًا طيبًا، فلمّا أنسوا إليه استدرجهم، وعلم أنّ لهم أخًا من أبيهم أصغر منهم، لا يطيق أبوه فراقه، فطلب أن يحضروه معهم.

**المشهد الثالث:** لم يُعْطهم يوسف قمحًا، إنّما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم ليضطرّهم إلى العودة بأخيهم. واستسلم يعقوب على كره، مشترطًا أن يعطوه موثّقًا.

ونقف هنا أمام قول يعقوب عليه السلام "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ" وواضح من سياق القول أنّه يعني هنا حكم الله العقديّ القهريّ الذي لا مفرّ منه ولا فكاك وأوصاهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة، معنى ذلك أنّه كان يخشى عليهم...

**المشهد الرابع:** نجد السياق هنا يعجّل بضمّ يوسف لأخيه بينما الطبيعيّ أنّ هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف لكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه، ولكنّ هذا ولا شكّ كان أوّل خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه. ومن ثمّ جعله السياق أوّل عمل لأنّه كان أوّل خاطر. وهذا من دقائق التعبير في هذا الكتاب المعجز!

ويطوي السياق مشهد الضيافة، ليعرض مشهد الرحيل الأخير فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه، ريشما يتلقى إخوته درساً ضرورياً لهم، وضرورياً للناس في كل زمان ومكان: "فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتَهَا الْعِيبُ انْتَكُم لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رِجْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79).

هو مشهدٌ مثيرٌ، حافلٌ بالحركات والانفعالات والمفاجآت، كأشدد ما تكون المشاهد حيويةً وحركةً وانفعالاتاً غير أن هذه الحركة صورة من الواقع يعرضها القرآن هذا العرض الحي الأخاذ.

إنّ هذا النصّ يحدّد مدلول كلمة "دين" - في هذا الموضوع - تحديداً دقيقاً، إنّه يعني نظام الملك وشرعه، الذي ما كان يجعل عقوبة السارق استرقاقه جزاء سرقته. إنّما هذا كان نظام يعقوب وشرعية دينه. وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم لأنهم موقنون بالبراءة. وذلك ليمّ تدبير الله ليوسف وأخيه.

أراد يوسف أن يُلقي عليهم درساً، وكان يعلم أنّ أخاه ليس بسارق، ولذلك عبّر أدقّ تعبيرٍ يحكيه السياق هنا "مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ" وهي الحقيقة الواقعة من دون زيادة في اللفظ تحقّق الاتهام أو تنفيه.

**المشهد الخامس:** الإخوة يبأسون من محاولة تخليص أخيهم الصغير، فانصرفوا من عنده، وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه. وهم هنا في هذا المشهد يتناجون. والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً. إنّما يثبت آخرها الذي يكشف عمّا انتهوا إليه: "فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ



الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْعَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)".

يذكرهم كبيرهم بالقسم المأخوذ عليهم كما يذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ويقرر ألا يرح مصر ويطلب إلى إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحةً بأن ابنه سرق. فأخذ بما سرق. **ويطوي السياق الطريق بهم.**

**المشهد السادس:** مشهد الإخوة أمام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنبا الفظيع: لم يقل إلا ما كان قد قاله يوم فقد يوسف، لكنّه يضيف إليه هذا الأمل، كأنّ شعاعاً ينبثق من قلب الرجل: إنّه الرجاء في الله... يكظم حزنه ويتجلّد، أما أبنائه المحجوبون عن حقيقة ذلك الواقع الصغير المنظور فلا يرحمون ما به "قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ". لكنّه هو يوجههم ألا تيأسوا من رُوح الله بما تتضمّنه هذه الكلمة من ظلال الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسّم على الأرواح من روح الله النديّ.

**المشهد السابع:** يدخل إخوة يوسف مصر للمرّة الثالثة وقد بلغ بهم الانكسار مبلغاً عظيماً، فلا يبقى في نفس يوسف قدرة على تمثيل دور العزيز... وحن أوان المفاجأة الكبرى...

ينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة، إنّه كان من المحسنين".

تتبع ذلك مفاجأة كبرى: "فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا".

مفاجأة القميص دليل على وجود يوسف وقرب لقياه، ثمّ مفاجأة ارتداد البصر، ثمّ يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه. تلك التي حدّثهم بها من قبل فلم يفهموه.

**المشهد الثامن يطوي الزمان والمكان** "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِنِّي شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي  
وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)".

يرى يوسف تأويل رؤياه بين يديه في سجود إخوته، وأخيراً يدعو الله أن يتوفاه ربُّه مسلماً وأن يلحق  
بالصالحين.

### المستويات التقنيّة المنتجة للدلالة:

لقد خرج يوسف من كلّ المحن التي مرّ بها متجرّداً خالصاً ومنتصراً، فلا عجب أن تكون هذه السورة  
تسليّةً وتسريّةً وتطميناً وتثبيتاً للمطاردين المغتربين (النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والقلة المسلمة). والسورة  
ذات طابع متفرّد في احتوائها على قصّة يوسف مكتملة، هذا الطابع الخاصّ يتناسب وطبيعة القصّة،  
ويؤيّد أداها كاملاً، ذلك أنّها تبدأ برؤيا يوسف وتنتهي بتأويلها.

وبين سرد الرؤيا ومسار تحقيقها تنهض بنية القصّة بمستويات من الرؤى والرموز والأحداث والحيل،  
ويتزامن تطوّرها وتشابك عناصرها ممّا يدفعنا، في هذه الدراسة التحليليّة إلى تتبّع تنامي هذه المستويات  
للكشف عن حركتها التقنيّة التي تُنتج دلالة النصّ.

### مستوى الرؤيا:

في قصّة يوسف أربع رؤى تظهر في ثلاث مراحل متعاقبة، لكلّ مرحلة زمانٌ ومكانٌ معيّنان:

**المرحلة الأولى: رؤيا يوسف** ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾<sup>1</sup>.

**المرحلتان الثانية والثالثة: رؤيا فتية السجن:** ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي  
أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا فَذَكَرْنَا مِنْهُ بِالْمَلِكِ فَاذْكُرْ لَهُ إِنَّهُ تَابِعَهُ مِنَ  
السِّجْنِ فَجَاءَهُ بِالْأَقْرَبِ وَقَالَ لِمَنِ الْاِقْرَبُ قَالَ لِلَّذِي أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ  
الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ  
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>2</sup>.

1 . سورة يوسف، الآية: 4.

2 . سورة يوسف، الآية: 36.

**المرحلة الرابعة: رؤيا الملك:** ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾<sup>3</sup>.

**والصور المرئية:** تتكرّر من الكواكب الساجدة إلى الطيور الآكلة من رأس الفتى، إلى البقرات التي تلتهم مثيلاتها الهزليات، وتكاد كثافة التعبير البلاغي للرؤى أن توحى بأشكال صور مرئية بالعين المجردة. أما شخصيات النصّ: يوسف، يعقوب، الإخوة، امرأة العزيز، فتيا السجن، والملك، فصورٌ متعدّدة للجنس البشريّ في مستوياته المتباينة، سواء كانت هذه المستويات اجتماعيّة، دينيّة، ثقافيّة، جنسيّة، فكريّة، وطبيّة... تتفاعل في ما بينها داخل النصّ ضمن آليّة معيّنة لتنتج دلالة النصّ التي تحوي إلى حدّ ما علّة وجوده.

#### المكان :

في القصّة القرآنيّة لا يُذكر المكانُ إلّا إن كان له أثرٌ خاصّ في إيصال رسالة القصّة وغايتها. المكان في هذه القصّة ظهر عنصرًا متغيّرًا على النحو التالي:

**(1) في الرؤيا الأولى:** لم يُذكر المكان، وإتّما كان الكون هو المسرح الذي سجّدت فيه الكواكب والشمس والقمر ليوسف (من السماء نحو الأرض): إذًا فيوسف يمثّل في هذه الرؤيا رمزَ الإنسانيّة المثلى (النبوة). ومن بعدُ ذُكرت مصرُ: المكان الذي حُمّل إليه يوسف عبدًا وقضى حياته فيها.

**(2) في الرؤيا الثانية:** المكان هو الواقع المعاش: ولكن في الرؤيا يتغيّر عمل الرائي من تقديم الخمر إلى عصرها.

**(3) في الرؤيا الثالثة:** المكان هو الحياة اليوميّة في مصر أيضًا لحبّاز من خلال حمله للخبز على رأسه والسير به، ثمّ تتدخّل الطيور التي تنقضّ على خبزه ثمّ ترتفع نحو السماء، لتضفي على المكان سعةً: الأرض غير منفصلة عن السماء... (من الأرض نحو السماء). والبقر والسنابل هي رموز الثروة الوطنيّة (مصدر الرزق والحياة).

<sup>3</sup> . سورة يوسف، الآية: 43.

أما الزمن: فيتطوّر وينمو من خلال نمو يوسف والمحيطين به:

يوسف طفلاً؛ يوسف شاباً وكذلك المسجونان معه؛ يوسف في مرحلة النضج يكلفه الملك مهمة الإعداد للمرحلة المستقبلية، التي سيمرّ بها الشعب (القحط)... من خلال البرنامج الاقتصادي الذي ضمّنه يوسف لتأويله رؤيا الملك.

الزمان في القصة القرآنية، لا سيّما في قصة يوسف هو الذي يمكّن بالحوادث ويحرّكها، وهو زمانٌ حيٌّ ومعلوم وملبيء بالمعنى: فحين أقدم إخوته على رميه في البئر، كانوا يدركون أنّ وجوههم تحمل تعبير الدناءة والخداع والكذب، من هنا كان لاختيار الوقت الذي نقلوا فيه الخبر إلى أبيهم دورٌ أساسيٌّ في تطوّر القصة، اختاروا الليل لستر علائم الغدر على وجوههم: "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" (الآية 16). وعنصر الزمان هذا هو الذي جعل أباهم يدرك نواياهم، لأنّهم لو كانوا صادقين لأسرعوا إلى إخباره، ولم ينتظروا حلول الظلام.

في القصة نفسها، لم تُحدّد المدّة التي قضاها يوسف في السجن، لأنّ المهمّ هو التأكيد على أنّ يوسف على الرغم من طول المدّة التي قضاها في السجن، لم ييأس ولم يتخلّ عن الإيمان بالله والدعوة إليه. فإبهام الزمان هو عين الوضوح. "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ" (الآية 42).

#### الأحداث:

تتفاعل الأحداث كلّها من خلال تفجّر عناصر الحياة التي تتضمّننها الرؤى في دلالاتها المتعدّدة:

تأويل الرؤيا الأولى: سجود الكواكب - السموّ.

تأويل الرؤيا الثانية: مصير الساقى - الحياة.

تأويل الرؤيا الثالثة: مصير الحنّاز - الموت.

## علاقة الملك بالمجتمع - النظام الاقتصادي:

والرؤيا هي التي كانت تحرك الشخصيات والمواقف:

فالرؤيا الأولى أيقظت هواجس يعقوب، فدفعته لتحذير يوسف من إخوته، فهو اجسه وشعوره بما يكفنه الإخوة من حسد ليوسف، كانت وراء إحاطته بسور من الحذر، وهذا الحذر هو الذي غدى حسد الإخوة، فلجأوا إلى الحيلة وهي تغييب يوسف عن أبيه، ليستروا حبه واهتمامه. لم يتكلم القرآن الكريم على جذور هذا الحسد الذي يذكرنا بحسد أحد ابني آدم لأخيه، مهدداً إيّاه بالقتل.

أما رؤيا الساقى فإنّ تأويل يوسف لها أنجاه من السجن، ومن التهمة التي ألصقتها به امرأة العزيز. وتأويله لرؤيا الملك مهّد لعودته إلى العائلة وكشف المؤامرة الأولى ومن ثمّ تحققت الرؤيا الأولى.

وإذا كان الفعل في القصة يتحرك باتجاهين:

اتجاه إلى الداخل: الرؤيا.

واتجاه إلى الخارج: أحداث القصة.

فإنّ فعل الرؤيا بحد ذاته يرمز إلى المستقبل: الزمن الآتي. فالسجود في الرؤيا الأولى: يدلّ على السموّ والرفعة والمكانة التي سيحصل عليها يوسف في المستقبل.

وأما فعل الأكل: البقرات السمان والعجاف والسنابل، فيمثّل مصير المجتمع في الزمن الآتي.

## مستوى الحيلة:

هنالك أربع حيل تنتمي إلى المراحل الثلاث المتعاقبة في بنية القصة، لكل منها دوافعه السلبية أو الإيجابية.

1- حيلة إخوة يوسف: وموضوعاتها: التغييب الكامل لوجوده المادّي والاجتماعي وضحيّتها يوسف، والدافع إليها (حبّ الأب ليوسف)، بدأت باستدراج يوسف (العزل)، بعد أخذ الإذن من الأب (الكذب) ثم رميه في البئر (تنفيذ الحيلة).

2- حيلة امرأة العزيز: والدافع إليها حبّها ليوسف، راودته عن نفسه بعد أن غلقت الأبواب (العزل)، ولقد همت به... وقدّث قميصه من دُبر (تنفيذ الحيلة).

3- حيلة امرأة العزيز: ودافعها الاقتصاص من نساء المدينة، اللواتي أطلقن الشائعات حولها، بحيث أعدت لهنّ متكأ، وأتت كلّ واحدة منهنّ متكأً فقطعن أيديهنّ، فدفعتهنّ إلى القول: ما هذا بشراً، لتسويغ فعلتها: قالت: "ذلكنّ الذي لمُتَنَّبني فيه"، كشفت عن سبب موقفها من يوسف، مغيبّة مكانته ابناً، ومظهره مكانته رجلاً.

4- حيلة يوسف: وموضوعها إعادة الحقّ إلى نصابه وتحقيق العدالة، وضحيّتها إخوة يوسف: استدرجهم وطلب إليهم أن يأتوه بأخ لهم من أيهم... للوصول إلى الهدف.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾.

الهدف: الكشف عن هويّته لإخوته وإظهار كامل وجوده المادّي والمعنويّ، الذي غيبتّه حيلة إخوته.

### مستوى الرمز:

ظهر الرمز في قصّة يوسف في الرؤى وفي الحيل وفي الأحداث، وقد شكّل (القميص) من خلال المجال الدلاليّ الذي كوّنه رمزاً بعيد الدلالة:

لقد ظهر القميص في ثلاثة مواقف خطيرة في سياق القصّة:

الأوّل: في مؤامرة القتل حين عاد إخوة يوسف يحملون قميصه، وعليه دم كذب، فالقميص المملّخ بالدم هو كلّ ما تبقى من يوسف الغائب فهو هنا رمز الغياب، وتجسيد للعلاقة الدائمة بين الأب ويوسف: يذكره به.

الثاني: حين ادّعت امرأة العزيز أنّ يوسف هو الذي أراد بها السوء، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أنّها صادقة ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ﴾ وكاذبة إن كان قميصه ﴿قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ﴾ وهو من الصادقين، فقد صار القميص القاعدة الأساسيّة التي يُبنى عليها الحكم. وأدّى القميص/الأثر الدور الأساسيّ في اتجاه الحكم نحو التجريم أو الإبراء، فطَبَعَ بذلك مصير الأنموذج/ الإنسان.

الثالث: حين عادوا بقميص يوسف إلى يعقوب: حلّ القميص محلّ يوسف فالقميص هو الذي يرّد البصر ليعقوب، فهو يشمّ يوسف من خلاله.

القميص هو الرمز الدلاليّ وفي الوقت عينه هو رمز ليوسف (الإنسان) فيوسف (الإنسان) يموت أو يغيّب، ويبقى أثره.

- ويوسف (الإنسان) معيار قيمته في آثاره (القميص).

- وآثاره كإنسان مجال لعطائه.

لقد أعطى القميص (الرمز) زخماً مضاعفاً لتوالي الأحداث، كما ساعد إلى درجة كبيرة في رسم الصورة الوصفية لأفعال الأشخاص:

- صورة إخوة يوسف سيكون وهم يحملون القميص المملّخ بالدم.

- صورة القميص الممزق على جسد يوسف.

### شخصيات القصة:

#### - يوسف (الشخصية المحورية)

الشخصيات الأخرى: كلّ منهم مأسور بفكرة معينة أو حالة نفسية معينة.

- يعقوب: [الحبّ - الألم - التنبؤ - الصبر] يجد حالته النفسية وهو اجسه بتحذير يوسف من

إخوته، بأن يكتفم رؤياه عنهم، وينصح أبناءه أخيراً في الدخول من أبواب متفرقة.

- إخوة يوسف: الحسد: تعقيب يوسف.

سبب الحسد: تفضيل الأب ليوسف على إخوته - تفوق يوسف عليهم جسدياً ← المؤامرة ←

الكذب ← التباكي.

- امرأة العزيز: إشباع رغبتها الجنسية: حيلة غلق الأبواب، وتوجيه التهمة إلى الفتى.

- الملك: فكرة الصراع تتحكّم به، لذلك ظهر فعل الإهلاك بين عناصر رؤياه: موقفه من يوسف في

صراعه مع امرأة العزيز - رؤياه التي فسّرها له يوسف - توليته ليوسف على خزائن الأرض.

- السيارة (البدو): الغنيمة: بيع الإنسان من أجل الحصول على المال.

أما يوسف الشخصية المحورية، فقد كان دوره أن يحزّر الإنسان الآخر من الفكرة المستحوذة عليه

والمستعبدة له:

- فهو يتحرّك في مستوى المعارضة ضدّ دوافع الحسد، ويتحرّك في التيار المضادّ لإشباع الشهوات خارج النظام الأخلاقي والاجتماعي.

- يساوي بين خروجه من السجن وإثبات براءته من تهمة خرق النظم الأخلاقية والاجتماعية، وهكذا تُعاد محاكمته، وتثبت براءته، وتشهد امرأة العزيز لصالحه.

- يوسف يحوّل فكرة الصراع التي تستحوذ على ذهن الملك إلى مستوى التنظيم والتدبير.

وبالنسبة إلى الساقى فقد عمل يوسف على دعوته إلى أن يثبت في وعيه الحقيقة الإلهية المطلقة، التي تحرّر الإنسان من نوازع الذاتية الضيقة، وتطلّقه في مجالات السموّ الكونية: ارتباطاً بالآخر، بالمجتمع، بالكون، بالمطلق، داخل السجن، لكنّه نسي عند نجاته الإنسان الآخر (يوسف)، وهذه انتكاسة أخلاقية كشفت عن تأثير نوازع الشر في استغلالها لقوة الفكرة الآسرة، ولولا رؤيا الملك، ومحتته في البحث عن تعبير حقيقي لرؤياه، لما أزيح الغبار عن ذاكرة الساقى الأنانية.

إنّ الدراسة التحليلية للسورة بدلالاتها المتنوعة، ومستوياتها المتعدّدة، تؤكّد على أهمية التأويل من داخل النصّ وليس من خارجه، فكلّ تأويل يعتمد على المرويّات صادقة أم كاذبة، هو خرقٌ لبنية النصّ وتشويه لدلالته، إن لم يكن تحريفًا لها.

إنّ الرؤيا في النصّ كإشارة غيبية مثّلت حقيقة الواقع المؤجّل، بينما قدّمت الحيلة الحياة كواقع مزيف: وهذه الدلالة ليست موجّهة نحو شخوص القصة بل نحو مستمعي الخطاب (أهل مكة)، فالمقارنة تُفاضل بين تأسيس واقع على نظام ثابت من الحقيقة الإلهية، ومجتمع هو مجموع لأخطاء بشرية أو نوازع نفسية قلقة: وجاءت الآيات الأخيرة في السورة تدعو المجتمع إلى الرؤيا المتدبّرة لحكمة الله، والتي هي أفضل من الرؤيا التي تومض في الوعي البشري:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

إنّها لعبرة لأولي الأبواب من معاصري الرسول للمؤمنين الذين ينتظرون فرجًا ومخرجًا من المحنة التي أُحيقت بهم، عبرة لليهود الذين يعيشون في أوساط المسلمين ليدركوا أنّ الله عزّ وجلّ أرسل محمّدًا نبيًّا كما أرسل



موسى من قبل في مصر لإنقاذ آبائهم الذين جاؤوا إلى مصر زمن يوسف ثم تعرّضوا للاضطهاد من بعد. وقد جاء ذكر مصر في القصة لهدفٍ متعدّد الجوانب.

إنّ هذه القصة، وغيرها من القصص التي تروي أخبار الأنبياء السابقين، كانت من العوامل النفسيّة المهمّة التي خفّفت الضغط الروحيّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (الحجر: 97)، لأنّه كان يرى بوضوح ثمار نصره الله عزّ وجلّ ورحمته للرسل السابقين، كانت تجارب الانتصارات المعنويّة التي حقّقها الأنبياء السابقون، داعماً كبيراً للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ولأصحابه المخلصين لمتابعة طريق تبليغ الرسالة.